المظاهر العلمية للقرآن الكريم

نقلها إلى العربية: نادر الحصني الحسيني

عن مقالة للبروفسور: صالح محمد إله الدين*

* أستاذ علم الفلك، الجامعة العثمانية، حيدر آباد، الهند

هناك وجهة جانبية صامتة للقرآن الكريم، فهو دائمًا يُلفت انتباهنا إلى المظاهر الطبيعية المختلفة، ويَحُثنا على التأمل والتمعن في سرّها ومجراها. وبهذا يخلق فينا الدوافع ويُولِّدُ الرغبات لدراسة العلوم. وباعتبار أن الغاية الرئيسية للقرآن الكريم هي أن يقود بني الإنسان في طريق الهداية إلى خالقهم، فهو يُركز على أن نجعل دراستنا للعلوم ليس وسيلة للتعرف على عالمنا الدنيوي فحسب بل كدليل قائم وشاهد قوي على وجود الخلاق العظيم.. رب العالمين، والتعرف على صفاته من خلال إحكام خلقه وجماله.. والإبداع في دقة تنظيمه، والحكمة من وراء هذا الخلق.

وغاية هذا الموضوع أن نُمثل هذين المظهرين وجمالهما من القرآن الكريم من حيث التشجيع على دراسة الطبيعة، وخلق الحنين إلى الخالق والولع والتشوق للوصول إليه من وراء هذه الدراسة.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمِنَ النَّاسِ مَنَ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٤- ١٦٦)

لا بد هنا أن يكون الجمال الناتج عن دراسة الظواهر الطبيعية محلاً للملاحظة والتأمل، خصوصًا أنه اندمج في الأسس المركزية لماهية الدين، وقامت قوانينه للاستدلال عليها. ومن المُلاحظ أيضًا أن الانتباه قد وُجه إلى عناصر متعددة من هذه المظاهر الطبيعية، للحث والتشجيع على سائر الدراسات العلمية في جميع فروعها ومواضيعها المختلفة.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١ و١٩٢).

هذه الآيات تزودنا بالدافع للقيام بدراسات علمية. وشهدت الدنيا بأسرها انعكاس تأثيراتها بدرجة عالية من الإبداع وذلك من خلال المكانة المرموقة التي بلغها العلماء المسلمون في العصور التالية لبعثة سيدنا محمد ﷺ. وهناك مخطوطات علمية من إنتاج هؤلاء العلماء المسلمين في مكتبات ومتاحف في شتى البلدان تؤيد ما نقول وتحتوى على تصريحات منهم بأنهم مدينون للقرآن الكريم بتزويده إياهم بالدافع القوي للقيام بدراسات علمية من الطراز العالي.

وهكذا يخبرنا القرآن الكريم أن الأكوان من حولنا لم تُخلق عبثًا، وأولو الألباب يُدركون بأنه تعالى ما خلق هذا باطلاً.. فيجب علينا أن نفكر مليًّا في محتوى هذا النص القرآني ونتمعن بدقة في معانيه، ونحقق في الخواص والأسس التي بُني عليها الكون وأن نتقصى المنافع من هذه المعارف.

المشكلة الأولى التي يعقد العلماء على حلها آمال كثيرة، ويترتبُ على حل عقدتها حل الكثير من المعضلات العلمية الغامضة، هي ولا شك كيفية بدء الخلق أو المنشأ العلمي لخلق السماوات والأرض. فهي من المعضلات ذات الأهمية الأولى في العلوم.

"ألبرت اينِيْشتاين" أعظم علماء القرن في هذا المجال يقول: ليس اهتمامي بهذه المشاهدات ولا تلك المظاهر وكيف تعليلها، ولكن اهتمامي هو كيفية إنشاء الله للسماوات والأرض عند بدءِ الخليقة.

تُعلمُنا هذه الآيات بأن تحقيقاتنا واستنتاجاتنا يجبُ أن تترافق بذكر الله، موقنين بأنه تعالى وراء هذه البدائع كُلها، فهي من صنع يديه، فإن نغفل عن ذلك بُرهة فلسنا من أولي النُهى، ولسنا من ذوي الفطنة والعقل في الاصطلاح القرآني. وقد علّمنا القرآن الكريم ذلك الدعاء القيّم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)

فبينما تدفعنا الآية الكريمة لأن نقصد العلم والمعرفة ونغرف من معينهما، فإنها تعلمُنا من جهة أخرى بأن الله سبحانه هو مصدر كلِّ علم ومعرفة، ولن نصل إليها إلا بتوفيقه وعونه. وتشير الآية أيضًا إلى أن العلم يصدر عن معينٍ لا ينضَبُ، وليس هناك حدٌّ للتقدُّم في مجاله.

ومثال آخر للأسلوب الرفيع الذي يدفعنا إليه القرآن الكريم، ويقوي عزائمنا لطلب العلم والتبحر فيه، وفي نفس الوقت يُضفي على الموضوع جوًّا من الروحانية، نجده في الآيتين التاليتين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٨ و٢٩)

إن دراسة الألوان في الكون وجهة من مظاهر العلوم اليوم.. والكواكب السماوية تختلف ألوانها بالانعكاس. ودراسة الألوان المنعكسة عن إشعاعها يكشف عن الموارد المتوفرة في الكوكب ونوعيته وماهيته. فالدراسة التفصيلية للألوان في غاية الأهمية في العلوم المعاصرة. ومما لا شك فيه أن التعمق في دراسة الطبيعة يجب أن يترك فينا انطباعًا قويًا بعظمة الخالق. فالآية تؤكد أن خشية الله هي نتيجة حتمية لكل علاّمة غزير الاطلاع.

والآيات من سورة المؤمنون تبين الأسلوب المتقن الرائع الذي يوجه به القرآن الكريم الانتباه إلى الظواهر الطبيعية، وفي نفس الوقت يوجه العقل ويحثه على التفكير في عظمة الخالق حيث إنها تحث على التركيز على دراسة الحياة، يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ

خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٣ إلى ١٥)

ما أبدع وما أجمل هذه الإشارة القرآنية التي تصف المراحل الفيزيائية لنمو الجنين من مبدأ تكوّنه إلى بلوغه صورة إنسان كامل، فتبلغ الذروة في تمجيد الله من خلال أعلى وأسمى تصميم، ألا وهو خلق الإنسان.

وانظر بتمعن أيضًا إلى الآيات المشوقة التالية التي تُزودنا بالدافع القوي لدراسة العلوم.. كما توجه انتباهنا في نفس الوقت إلى وجود الخالق المنظم، والرب الذي يكلأ خلقه بالعناية.

﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ١٨ إلى ٢٣)

"...... هنا جمعت السماء والأرض كزوجين متقابلين بينهما اتحادٌ واتفاقٌ وتآلف، كمثال لما يجب أن تكون عليه علاقة الخالق بالمخلوق والروح بالجسد حيث لا نجاة للإنسان إلى في الفرار إلى خالقه....."

لقد أُثير الانتباه هنا عرضًا إلى المبدأ القرآني القائل: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فقد طُلب من الرسول الأعظم ﷺ أن يُذكِّر، ونَفى أن تكون له أية سيطرة. والإشارة إلى رسول الله كمُذكِّر ومبشر ونذير، يُلهبُ في قلوبنا نار المحبة والشكر ومعرفة الجميل والاعتراف بالفضل. فمن خلاله وبواسطته ﷺ وصلتنا الرسالة المُهيمنة والهدى الكامل للقرآن الكريم.

ويُثيرُني الإعجاب أيضًا بهذه الآيات: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق: ٧ إلى ٩).

إن الرسالة التي يعرضُها علينا القرآن الكريم هنا هي بالغة الأهمية حيث لعب الفلك دورًا بارزًا في توليد النظريات العلمية. فالكواكب السماوية لا تضيءُ علينا فقط.. بل تُثير أفكارنا أيضًا باقتراحات لتحليل المشاهدات المرئية. فالعلاّمة الفرنسي المختص بالرياضيات الفلكية (إِنْش يوّيني كيرْ) يكتب:

"نجوم السماء لا تُرسل إلينا فقط أضواءها المرئية الواضحة التي تستقبلها عيوننا الفيزيائية، ولكن تأتينا منها أيضا أضواء تُنير عقولنا."

فالقرآن الكريم يتوقع منا أن نرجع إلى الله من خلال ما توجهه إلينا هذه الكواكب من تنظيم هائل للخلق.

ومثال آخر أيضًا للأسلوب القرآني البليغ في إثارة التفكير والتمعن في الظواهر الطبيعية مضفيًا طابع التشويق على الروح لمعرفة الخلاق:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٤٨ إلى ٥٣)

إن كثيرا من صفات الله تعالى وأسمائه العُليا تتجلى، ولا شك، من وراء خلقه للسماوات والأرض. وإنه خلق من كل شيء زوجين: هي نقطة مثيرة لمزيد من الاهتمام في دراسة العلوم.

فهنا جُمعت السماء والأرض كزوجين متقابلين بينهما اتحادٌ واتفاقٌ وتآلف، كمثال لما يجب أن تكون عليه علاقة الخالق بالمخلوق والروح بالجسد حيث لا نجاة للإنسان إلى في الفرار إلى خالقه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، كي يحقق تلك الوحدة التي هي الغاية المتوخاة من الخلق.

وهكذا يُعلمنا القرآن الكريم أن نحرز تقدمًا في كلا

المجالين: مجالي العلوم الدنيوية والترقي الروحاني. وباتباع تعاليمه عز وجل تستطيع الإنسانية أن تبلغ حظًا من مجال العلوم بدون أن تؤدي بها المعرفة إلى تحطيم نفسها وتخريب مجتمعاتها.

تَمعّنُوا في هذا الأسلوب الساحر الأخاذ الذي وجه به القرآن الكريم الانتباه إلى التوازن الدقيق المدهش في حركة الأجرام السماوية، ثم وَجَّهَنا بأن نقيم التوازن العادل في معاملاتنا الاجتماعية، مركزين أفكارنا على المثل السامي الذي قدمه لنا رب العالمين.

ويؤكد القرآن الكريم مشددًا على وجوب اتباع الحق والتزام الصدق، فهي مزايا أساسية في كل مجتمع فاضل، كما هي مزايا أساسية لدى كل علاّمة يتحرى الحقيقة، فمثلا على الرغم من أن الإسلام قد بُني على التوحيد الكامل، فإننا نجد أنه يطلب من الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨٢) فهنا يضع القرآن الكريم قاعدة أساسية في دراسة العلوم، فمهما تكُن الفكرة أو النظرية بعيدة عن المألوف، ومهما خالفت عاداتنا وتقاليدنا ومُعتقداتنا، فللتحقيق فيها يجب أن نفترض إمكانياتها، فالحق أحق أن يُتبع، ومهما تكن الفكرة أو النظرية السائدة قريبة من قلوبنا ومشاربنا، إذا عارضت الحق، فالحق يجب أن يتجلى.. فهو يعلو ولا يُعلى عليه.

كما يؤكد القرآن الكريم علينا أن نعمل بجدٍّ ونشاط فيقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إلا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٤٠).

كما يوصينا بالثقة والشجاعة حين يعطينا التأكيد من رب العالمين بأنه سيقود إلى الهُدى أولئك الذين يحثّون الخطى في سبيله، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٧٠). وهكذا لا يكتفي القرآن الكريم بمجرد تشجيعنا على دراسة العلوم والغوص في بحر الحكمة والمعرفة، ولكنه يولد فينا تلك الصفات الضرورية التي نحتاجها حتما لدراسة العلوم، وعليها يتوقف النجاح لكل علاّمة يجدّ في طريق المعرفة.

والقرآن الكريم هو كلام الله، والعلوم ما هي إلا دراسة صنع يديه سبحانه وتعالى. فليس هنالك مجال لوجود تناقض أو تعارض بين الدين والعلم، إذا ما فقهنا كليهما بطريقة سليمة وصحيحة.

وبعض الحقائق العلمية الموجودة سابقًا في القرآن الكريم، قد أُقِيمَ الدليل عليها اليوم في العلوم المعاصرة. وذكر "موريس بيكاي" في كتابه "الكتاب المقدس والقرآن والعلوم" بعض هذه الحقائق. وأود أن أذكر حقيقة علمية سابقة لأوانها في القرآن الكريم، لم تكتشفها العلوم المتقدمة حتى اليوم.

حاليا هناك مشكلة على غاية الأهمية يسعى لجلائها العلماء، وهي اكتشاف الحياة في الفضاء خارجًا عن نطاق كُرتنا الأرضية. وفي حقيقة الأمر إن لجنة من اتحاد المراصد الفلكية قد شُكلت فعلاً للبحث فيما إذا كانت هناك حياة فيما وراء الفضاء الخارجي للأرض؟

والقرآن الكريم الذي أُوحيَ به قبل أربعة عشر قرنًا، يحتوي على الملاحظة التالية حول هذا الموضوع: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٣٠). وهكذا يبدو جليًا أن القرآن الكريم يثير حب الاستطلاع العلمي، ويركزُ على هذه الإثارة، ويزيد في حدتها، بما في ذلك أحدث المواضيع العلمية المتجسدة اليوم وما سيظهر حتمًا على الساحة العلمية في المستقبل. وباختصار إنه يُشجعنا على اكتساب العلم والتحلي بالمعرفة، ويحث عليها كما يُنمي فينا المَلكات العلمية، وفي نفس الوقت يوجه انتباهنا إلى العلي القدير، ويوحي إلينا بالحنين إلى قربه، ويشحذ الشوق لمعرفته من خلال خلقه.